

في مائة عام

الصراع بين الطغيان والديموقراطية

ومحنة الديموقراطية المعاصرة

بقلم مؤرخ كبير

منذ نحو قرن ونصف كانت ربح الثورة الفرنسية الكبرى تهب على اللوكية الفرنسية ، فلما انفجر بركان الثورة بعد ذلك بنحو عامين أو ثلاثة ، سقطت اللوكية الفرنسية وكل صروحها ونظمها القديمة صرعى الفورة المضطربة ؛ ولكن الثورة الفرنسية لم تقف عند حدود فرنسا ، ولم تقف عند سحق اللوكية الفرنسية ، ولم تلبث أن غلت ثورة عالية ترنح لها كل العروش والنظم في أوروبا القديمة ، وتتحد جيوش أوروبا القديمة على مقاومتها وإخمادها . ولكن جيوش أوروبا القديمة ارتدت منهزمة أمام القوى المعنوية الجديدة التي تضطرم بها جيوش الثورة ؛ ولم تسحق الثورة أمام العدو الخارجي ، ولكنها سحقته في ضمير من المارك الداخلية على يد قادتها وزعمائها أنفسهم ، ولم تلبث أن استحالت إلى حركة خانمة ذلول تحمها موجة من الطغيان العسكري لتحقيق نفس الشهوات القومية والمبادئ المطلقة التي قامت لسحقها

غير أن الثورة الفرنسية تبقى مع ذلك حركة تحرير عالية ، بل هي من بين الثورات التحريرية الكبرى أوسعها مدى وأبداها أترأ في تاريخ الإنسانية ؛ ذلك أنها قامت في الأصل على حقوق الانسان ، وجملت غايتها تحرير الحقوق والحريات العامة من أسفادها ، وسحق كل النظم الطاغية ، وتقديس الفرد وحقوقه ، واعتبار الدولة خادم الأمة في مجموعها ، وخادم الفرد والأمينة على حقوقه ومصالحه ؛ ولهذا كان ظفرها عظيماً ، وأثرها عميقاً في بث المبادئ الديموقراطية والتحريرية في أمم أوروبا القديمة ؛ ومنذ فأنج القرن التاسع عشر نجد معظم الأمم الأوربية التي تسودها النظم المطلقة مثل روسيا القيصرية ، وإمبراطورية النمسا والمجر يجيش بقورات تحريرية متوالية ، وتطالب بإقامة النظم

والدساتير الحرة ، ونجد اللوكيات القديمة المطلقه تجد بكل ما وسعت في قمع هذه الحركات التحريرية

وقد تجلى هذا الصراع بين الطغيان والديموقراطية على أثر سقوط نابليون وسحق الفورة العسكرية البونابارتية التي شملت أوروبا مدى خمسة عشر عاماً ، وقامت اللوكيات الطاغية القديمة تأمر وتتحد على قمع المبادئ والحركات التحريرية التي اتسع نطاقها وسرت إلى معظم الأمم الأوربية ، واضطرت معظم الحكومات المطلقة أن تنزل عند ضئطها ووعيدها وأن تبذل بعض المنح الدستورية ؛ وأسفرت هذه الحركة الرجعية التي نظمتها ودبرها إسكندر الأول قيصر روسيا عند عقد «المحالفه المقدسة» الشهيرة بين روسيا وبروسيا والنمسا (سنة ١٨١٥) ، وكان غرضها الظاهر أن تنظم الدول الثلاث شؤونها الداخلية والخارجية طبق التعاليم المسيحية ، وأن يحكم اللوك الثلاثة بين شعوبهم بالعدل والمساواة ، وأن يقوموا بتأييد السلام ؛ ولكن كان غرضها الحقيقي أن تتعاون اللوكيات الثلاث على قمع الحركات التحريرية التي تضطرم بها أمم القارة ، وعلى تأييد الحقوق اللوكية المطلقة ، وعلى مقاومة الروح الدستورية الحقيقية وإخضاعها لهوى العرش وإرادته ؛ وقد انضمت معظم الدول الأوربية الأخرى إلى هذه المحالفه الشهيرة ، عدا انكارتا التي كانت تمثل النزعة الديموقراطية الخصيمة

ولكن الروح الدستورية كانت قد نفذت إلى الأعماق وحمل تيار الحركة التحريرية أمامه كل شيء ، فلم تنجح حركات القمع إلا قدر ما يؤديها العنف ؛ وكان العنف كالمادة يفسدى هذه الوثبات الشعبية ويذكيها ؛ فلم تلبث غير بيد حتى عادت إلى الاضطراب ؛ ومنذ سنة ١٨٣٠ نرى الثورات الشعبية تنفجر هنا وهناك في أوروبا . ثم كانت سنة ١٨٤٨ ، التي يمكن أن تسمى بحق عام الثورة الديموقراطية ، ففيها سقطت اللوكية في فرنسا أمام إرادة الشعب صرة أخرى ، وقامت الجمهورية الفرنسية الثانية ؛ وفيها اضطرت الثورات التحريرية في ألمانيا ، وفي معظم أنحاء الامبراطورية النمساوية ، وفي كثير من الدول الايطالية ، واجتاحت أوروبا من أقصاها إلى أقصاها ربح تحريرية قوية اهتزت لها كل النظم الطاغية والعروش القديمة المطلقة ؛ ولم

يلت أن لاح فجر الديمقراطية الحديثة في الأفق قويا ساطعا

— ٢ —

وبلغت الديمقراطية ذروة ظفرها عقب الحرب الكبرى ،
فانهزت القيصرية الروسية ، وانهارت الأمبراطورية النمساوية ،
والأمبراطورية الألمانية ، والسلطنة العثمانية ؛ وقامت جمهوريات
فتية ، في روسيا وألمانيا والنمسا وبولونيا وتركيا ، وفي عدة أحر
من الدول الجديدة الناشئة التي خلقتها معاهدة الصلح لأغراض
عسكرية وسياسية ؛ ثم قامت الجمهورية أخيراً في اسبانيا بعد أن
سقطت ملكيتها القديمة الثالثة أمام الثورة العامة

ولكن هذا الظفر الذي أحرزته الديمقراطية عقب الحرب
الكبرى كان خلبا ، ولم يقم على أسس أرواح ديمقراطية
حقيقية ، بل استمدت من القوضى العامة التي أحدثتها الحرب ؛
هذا إلى أن هذه الديمقراطية الظاهرة لم تكن رزينة عاتلة ، بل
انساققت غير بعيد إلى ألوان خطيرة من العنف والتطرف والقوضى .

ومن جهة أخرى فقد كانت الديمقراطية فناغا للطنيان المطلق في
روسيا السوفيتية وفي تركيا . وقد أدى تطرف الديمقراطية
وتفرق كلتها ووهن جهتها غير بعيد إلى انهيار صروحها في إيطاليا
حيث قام الطنيان المطلق باسم الفاشستية ، ثم إلى انهيار صروحها
في ألمانيا حيث قام الطنيان المطلق باسم الاشتراكية الوطنية ؛
وانهارت الديمقراطية أيضا في بولونيا وفي النمسا وفي دول أخرى
حيث قامت أنظمة قومية أو عسكرية طاغية بألوان وأسماء مختلفة ،
وهكذا لقيت الديمقراطية في بضمة الأعوام الأخيرة من ضروب
القتل والمحن ما لم تلقه قط في حياتها القصيرة الظاهرة ؛
والديمقراطية اليوم تناضل عن مبادئها وعن كيانها ، ولكنها
تناضل في غمر من الصعاب واليأس لأنها لا تناضل فقط أنظمة
ومبادئ خصيمة ، وإنما تناضل أيضا قوى عسكرية طاغية
هي التي تعمل باسم المبادئ والنظم الجديدة

غير أن الديمقراطية مازالت محتفظ بميزتها الكبرى ، وهي
أنها ما زالت تعتبر قانون الحكم العام ، وما زالت مبادئها هي
المبادئ الشعبية الخالدة ، وهي المبادئ التي ترتكز إليها الحقوق
والحرريات العامة في كل الأمم المتقدمة ؛ وهذا هو سر بقائها وسر
قوتها ، وهذا ملاذ آمالها ومستقبلها

أما هذه النظم الطاغية التي تقوم اليوم باسم الشعب أو باسم
القومية في دول مثل روسيا وتركيا وإيطاليا وألمانيا ، فهي في

الواقع نظم عنف وإرهاب محض ؛ وهي أبعد النظم عن المبادئ
الحرية والمبادئ الإنسانية ؛ ذلك لأنها تمثل النزعة الفردية
والجزئية قبل كل شيء ، وفي هذه النزعة الفردية الجزئية
تذوب فكرة الدولة والأمة والحقوق العامة ؛ وقد قامت
البلشفية في روسيا باسم الكتلة العاملة واسم سيادتها مناقضة
لسيادة الرأسمالية في الدول الأخرى ؛ بيد أن هذه السيادة المزعومة
للكتلة العامة في روسيا ، ليست سوى سيادة الحزب البلشفي ،

بل هي في الواقع سيادة عصبة من الزعماء والعامة يحكمون تلك
الكتلة الشعبية الهائلة بوسائل العنف والإرهاب . نعم تزعم
البلشفية أنها غاية عالية هي بث مبادئ الثورة العالمية وتحطيم النظم
الرأسمالية كلها ؛ وتعمل البلشفية منذ أعوام طويلة لبث مبادئها
ودعايتها في معظم أنحاء العالم ، ولكن البلشفية مازالت وقفا
على روسيا وحدها حيث تؤيدها القوة الطاغية العنيفة وحيث
تتصرف حفنة من الطغاة الدمويين في مصائر الشعب الروسي
وفي عقوله وأرواحه . ولقد نسجت الفاشستية في إيطاليا على
هذا النوال في تمكين قبضتها من الشعب الإيطالي ، مع فارق
في الأسس التي تقوم عليها فهي تقوم على فكرة السيادة القومية

والمسكورية ، بيد أنها كالبلشفية سيادة حفنة من الرجال ، (بل
رجل واحد) يؤيدهم حزب وجيش ، ويفرضون إرادتهم على
الشعب بوسائل العنف ؛ وليس في الفاشستية ما يميزها إلا أنها
من حيث التنظيم السياسي تقوم على الفكرة النفاية . وقد
كانت الاشتراكية الوطنية (النازية أو الهتلرية) في ألمانيا أحدث
ألوان الطنيان المعاصر ، بيد أنها من أشدها إيمانا في العنف
وسحق الحريات والحقوق العامة ؛ وأهم مميزاتا وقواعدها الفكرة
الجنسية أو فكرة السلالة والدم ؛ وهي تذهب في تطبيق هذه
النظرية التي تتخذها ستارا لنفايات السياسة مذهب الاغراق

الثير ، وتصدر باسمها أغرب القوانين التعسفية ، وترتكب
أشنع ألوان الاضطهاد والطاردة ؛ ومع أنها تتظاهر بأنها تطارد
اليهودية في الواقع وتعمل على سحق نفوذها العنصري والاجتماعي
في ألمانيا ، فإنها في الحقيقة تذهب بعيدا في تأكيد النعمة الجنسية
وتتخذها ستارا لمناطة من التعصب الجنسي والقومي الشنيع ،
وهي بذلك من أخطر الحركات القومية التي تتسدر بالانفجار
السلح ؛ وللإشتراكية الوطنية خاصة أخرى ، هي أنها تمن في
التسلط على شخص الفرد وعقله وروحه ، فتسلبه كل إرادة وكل

الفلسفة

للدكتور إبراهيم يويحيى مذكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

كلمة تثير في النفس ما تثير من غموض وإبهام ، وتؤذن بشيء من الغرابة والخفاء . يقال : تفلف فلان إذا ظن أنه بمن في القريب ولا يأتي بما ألقه الناس . وقد يُرمى الفلاسفة بأنهم « يعيشون مع الملائكة » ويسبحون في عالم الخيال ، لا يشعرون بما يشعر به من حولهم ، ولا يقيسون الأمور بما توارده عليه العرف المألوف . يقال : هذا فيلسوف ، وما لنا ولهذه الفلسفة ، إذا أريد عدُّ المحدث عنه وحديثه في عالم النظريات حيث لا تنال الحقيقة الواقعة ما تستحق من تقدير . لذلك انتبذت الفلسفة ، وانصرف الناس عنها ، ونظروا إليها نظرة ازدراء واحتقار ، أو توجس وخيفة . فالمصريون والمتحضرين ينتقصون الفيلسوف مدعين أنه لا يعيش في عصره ، ولا يأخذ بتمسك وافر من شؤون الحياة ، والجامدون والمتأخرون يرمونه بالألحاد والزندقة والخروج على الأديان والفلسفة في بلدنا بوجه خاص غريبة عديمة النضج والأعوان ، لا تكاد تجد من يتحجب إليها ، ويأخذ بيدها ، ولا من يصورها للناس في شكلها الواضح ومظهرها الصحيح . فالنظم التعليمية العامة لا تعمل على نشرها ، ولا تقف الناس على حقائقها ؛ والجمهور يفر منها ، ولا يحاول أن يتفهمها ليؤمن بما لها من أثر في تهذيب الأفراد والجماعات ورفع مستواهم العقلي والخلقي ؛ والخاصة يتبادلون منها أفكاراً بالية وآراء عتيقة قل أن تمرض عرشاً مستقيماً ، وكأن الفلسفة في نظرم ما جاء به أفلاطون وأرسطو دون أن يكون للقرون الوسطى والمصور الحديثة أبحاث يمتد بها أو نظريات يقام لها وزن . وهناك طائفة أخرى جنت على الفلسفة جنائيات شتاء ، وزادت الناس فيها بغضاً وكراهية ، وهي جماعة أدعياء الفلسفة الذين يتهجمون عليها ، ويكتبون فيها وينشرون ، ويناقشون ويتعرضون ، دون أن ينفذوا إلى صميمها ، ويدركوا كنهها ؛ وفي الصحف اليومية والأسبوعية من أمثلة هذه الجراء العظيمة الشيء الكثير . وكأن العلوم الفلسفية في هذا البلد هي مباح ، وسلمة تعرض في مختلف الأسواق ، ومتاع

حق في التفكير أو التصرف المستقل ، وربما كانت في ذلك أكثر إيماناً من البلشفية ذاتها ؛ فالفرد لا وجود له في نظر الاشتراكية الوطنية ؛ والدولة هي كل شيء . بيد أن الدولة والحكومة والزعامة ومصدر السلطات كلها ليست سوى العصابة المتطرية ومن ورائها القوات النازية المسلحة ؛ وهذا الامعان في تطبيق الفكرة الحزبية لا يقتصر على الدولة والتشريع ، بل يمتد إلى الاقتصاد والثقافة وكل ما هنالك مما له مساس بتكوين الفرد أو توجيهه ، سواء في جسمه أو عقله وروحه

وكأن البلشفية تزعم أنها حركة ومبادئ عالية لإصلاح الدولة والمجتمع ، فكذلك تزعم الفاشستية الإبطالية والنازية الألمانية . بيد أن الفاشستية لم تنجح كحركة عالية ، وإن كانت قد ظهرت آثار ضئيلة منها في بعض الدول الأخرى ويمكن القول بأنها لقيت وما زالت تلقى في جميع العالم التمددين أشد صنوف المعارضة ، بل ما زالت رغم كل ما عملته لإصلاح شؤون إيطاليا الداخلية تثير بوسائلها عواطف الاشترازي والمقت ؛ كذلك الفتاية المتطرية لم تجاوز حدود ألمانيا ، ولم تلق مزارعها الجنسية بالأخص صدى ، وقد وصفت نزعها بأنها وثنية بربرية ؛ والخلاصة أن هذه الحركات الطاغية التي قامت بالعنف والارهاب وما زال يسندها العنف والارهاب بقيت حركات محلية ، ومن الحق أن مصابرها ترتبط بمصائر زعمائها ومصائر القوى الضيفة التي تسندها ، ومن المرجح أنها ستهازل عند حدوث أول انفجار عام . على أنه لا ريب أن هذا الطغيان الشامل الذي يسحق شعوباً عربية بأسرها ، وذلك التطور المدهش في شؤون الزعامة والحكم ، وهو تطور ترتب عليه أن تتب أحط العناصر والطبقات إلى أسوأ الزعامة السياسية والقومية ؛ وذلك الاستعباد المزرى لكرامة الفرد ولشخصه وعقله وروحه ؛ وتلك الوسائل البربرية لتدعيم الشهوات الحزبية والمذهبية ، وهي وسائل تذكرنا بالمصور الوسطى ؛ وتلك الأحقاد القومية والجنسية التي تثيرها أذهان متعصبة منحطة : تقول لا ريب أن هذه الخواص التي تلازم نظم الطغيان الحاضرة ، والتي هي ملاذ قوتها وحياتها ، هي في الواقع دلائل واضحة على انحلال المدنية الغربية الحاضرة ، وعلى قرب انحسارها إلى غمر جديدة من الاضطراب والفوضى

« مؤرخ »